

الدرس التاسع عشر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ؛ صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين . اللهم إنا نسألك علماً نافعاً ورزقاً طيباً وعملاً متقبلاً . قال الإمام الأواب محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى وغفر له وللشارح وللسامعين تحت باب التحذير من البدع:

وقال الدارمي: أَخْبَرَنَا الْحَكَمُ بْنُ الْمُبَارَكِ ، أَنبَأَنَا عَمْرُو بْنُ يَحْيَى قَالَ سَمِعْتُ أَبِي يُحَدِّثُ عَنْ أَبِيهِ قَالَ : كُنَّا نَجْلِسُ عَلَى بَابِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَبْلَ صَلَاةِ الْعَدَاةِ ، فَإِذَا خَرَجَ مَشِينَا مَعَهُ إِلَى الْمَسْجِدِ ، فَجَاءَنَا أَبُو مُوسَى الْأَشْعَرِيُّ رضي الله عنه فَقَالَ : أَخْرَجَ إِلَيْكُمْ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ بَعْدُ ؟ قُلْنَا : لَا ، فَجَلَسَ مَعَنَا حَتَّى خَرَجَ ، فَلَمَّا خَرَجَ قُمْنَا إِلَيْهِ جَمِيعاً ، فَقَالَ لَهُ أَبُو مُوسَى : يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ إِنِّي رَأَيْتُ فِي الْمَسْجِدِ آتِفاً أَمراً أَنْكَرْتُهُ ، وَلَمْ أَرَ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ إِلَّا خَيْراً ، قَالَ : فَمَا هُوَ ؟ فَقَالَ : إِنَّ عِشْتَ فَسَتَرَاهُ ، قَالَ : رَأَيْتُ فِي الْمَسْجِدِ قَوْماً حَلَقاً جُلُوساً يَنْتَظِرُونَ الصَّلَاةَ ، فِي كُلِّ حَلَقَةٍ رَجُلٌ ، وَفِي أَيْدِيهِمْ حَصَى فَيَقُولُ : كَبِّرُوا مِائَةً فَيَكْبِرُونَ مِائَةً ، فَيَقُولُ : هَلِّلُوا مِائَةً فَيَهْلِلُونَ مِائَةً ، فَيَقُولُ : سَبِّحُوا مِائَةً فَيُسَبِّحُونَ مِائَةً . قَالَ : فَمَاذَا قُلْتُمْ لَهُمْ ؟ قَالَ : مَا قُلْتُ لَهُمْ شَيْئاً أَنْتَظَرُ رَأْيَكَ أَوْ أَنْتَظَرُ أَمْرِكَ . قَالَ : أَفَلَا أَمَرْتَهُمْ أَنْ يَعْدُوا سَيِّئَاتِهِمْ وَضَمِنْتَ لَهُمْ أَنْ لَا يَضِيعَ مِنْ حَسَنَاتِهِمْ شَيْءٌ . ثُمَّ مَضَى وَمَضِينَا مَعَهُ حَتَّى أَتَى حَلَقَةً مِنْ تِلْكَ الْحَلَقِ فَوَقَفَ عَلَيْهِمْ فَقَالَ : مَا هَذَا الَّذِي أَرَأَكُمْ تَصْنَعُونَ ؟ قَالُوا : يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ حَصَى نَعُدُّ بِهِ التَّكْبِيرَ وَالتَّهْلِيلَ وَالتَّسْبِيحَ . قَالَ : فَعْدُوا سَيِّئَاتِكُمْ فَأَنَا ضَامِنٌ أَنْ لَا يَضِيعَ مِنْ حَسَنَاتِكُمْ شَيْءٌ ، وَيُحْكَمُ يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ مَا أَسْرَعَ هَلَكَتِكُمْ ، هَؤُلَاءِ صَحَابَةُ نَبِيِّكُمْ صلى الله عليه وسلم مُتَوَافِرُونَ وَهَذِهِ ثِيَابُهُ لَمْ تَبَلْ وَآيَتُهُ لَمْ تُكْسَرْ ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّكُمْ لَعَلَى مِلَّةٍ هِيَ أَهْدَى مِنْ مِلَّةِ مُحَمَّدٍ ، أَوْ مُفْتَسِحُوا بِبَابِ ضَلَالَةٍ . قَالُوا : وَاللَّهِ يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ مَا أَرَدْنَا إِلَّا الْحَيْرَ . قَالَ : وَكَمْ مِنْ مُرِيدٍ لِلْخَيْرِ لَمْ

يُصِيبُهُ، إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ حَدَّثَنَا أَنَّ قَوْمًا يَقْرَأُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ ، وَائِيْمُ اللَّهِ مَا أَدْرَى لَعَلَّ أَكْثَرَهُمْ مِنْكُمْ . ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ ، فَقَالَ عَمْرُو بْنُ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : رَأَيْنَا عَامَّةَ أَوْلِيكَ الْحَلْقِ يُطَاعُونَا يَوْمَ النَّهْرَوَانِ مَعَ الْخَوَارِجِ .

والله المستعان وعليه التكلان ، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

قال الإمام شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله في خاتمة كتابه هذا العظيم «فضل الإسلام» تحت باب التحذير من البدع : ((قال الدارمي)) أي الإمام المعروف صاحب كتاب «السنن» ، وهذا الأثر ساقه الإمام الدارمي رحمه الله في سننه بسند ثابت عن رسول الله ﷺ ، وفيه قول النبي عليه الصلاة والسلام عن الخوارج : ((إِنَّ قَوْمًا يَقْرَأُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ)) ؛ وهو حديث متواتر عن النبي عليه الصلاة والسلام رواه عنه جمعٌ من أصحابه رضي الله عنهم أجمعين .

والمصنف رحمه الله سبق أن ساق هذا الحديث بلفظٍ آخر في موضعٍ من كتابه «فضل الإسلام» ، لكنه أعاد هذا الحديث هنا لقصة ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مع أصحاب تلك الحَلَقِ المحدثَةِ في دين الله ﷻ ؛ لينبه المصنف رحمه الله بذلك إلى خطورة البدع حتى وإن صُعُرت البدعة في عين الإنسان ، فالبدعة أياً كانت خطيرة ، والبدعة الصغيرة تولّد البدع الكبار ؛ كما حصل لأصحاب هذه الحَلَقِ الذين لما رأهم ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على تلك الحال أورد حديث النبي ﷺ في ذم الخوارج والتحذير منهم ثم قال : ((وَائِيْمُ اللَّهِ مَا أَدْرَى لَعَلَّ أَكْثَرَهُمْ مِنْكُمْ)) ؛ مشيراً بذلك ﷺ إلى خطورة أن يفتح الإنسان على نفسه باب الحدث في دين الله واتباع الهوى ولو كان في أمرٍ صغير في عينه ، لأنه إذا فُتح الباب دخل الإنسان ، والبدعة - كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله - أول ما تبدأ تكون شبراً ، ثم تكون ذراعاً ، ثم تمتد إلى ما شاء الله ، فلا يفتح المرء العاقل لنفسه البدايات ؛ لأنه إذا فتح لنفسه بدايات البدع جرّته إلى بدع أخرى ، فالبدعة تولّد البدعة ، كما أن السنة تنادي أختها ، إذا عمل المرء بالسنة وحافظ عليها نادت السنة السنن الأخرى وأصبح يرغب في السنن ، بينما إذا فتح على نفسه باب الهوى وباب البدعة فالبدعة تجرّ إلى البدعة وتدفع صاحبها إلى بدع أخرى ، والبدع الصغار تولّد بدعاً كباراً ويفتح على الإنسان الباب ويصبح رجوعه إلى السنة من الأمور الصعبة ، وهذا معنى الحديث المتقدم : ((إن الله احتجر التوبة عن صاحب البدعة حتى يدع بدعته)) ، ولهذا أيضاً كانت البدعة أحب إلى الشيطان من المعصية ؛ لأن البدعة صُعُرت أو كُبُرت يفعلها من يفعلها تديناً وتقرباً واعتقاداً لصحتها .

فالشاهد ؛ المصنف رحمه الله أعاد حديث ذم الخوارج هنا مع أنه سبق أن أورده من أجل هذه القصة العظيمة قصة ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مع أصحاب تلك الحَلَقِ الذين اجتمعوا في المسجد واجتمعوا لأجل ذكر الله ، والذكر الذي كانوا يذكرون الله به هو الكلمات التي يحبها الله ؛ سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، وهذا أحب

الكلام إلى الله ، ولكن كانت الصفة ليست صفةً معهودة ولا معروفة من سنة النبي عليه الصلاة والسلام بل صفة محدثة ؛ أن يجتمع جماعة ويتحلّقون ويقوم عليهم رجل ويضعون بين أيديهم حصى ثم يقول : "سَبِّحُوا مئة" فيبدأ الجميع جماعةً يعدّون الحصى مئة تسبيحة ، فإذا انتهوا قال : "هللوا مئة" وهكذا ، فهؤلاء الذي جمّعهم هو ذكر الله ؛ أرادوا ذكر الله ﷻ ، أرادوا خيراً ، لكن النهج الذي سلكوه في إرادة الخير ليس نهجاً مشروعاً وليست جادةً مسلوكة في سنة النبي الكريم عليه الصلاة والسلام .

ساق المصنف رحمه الله هنا ما رواه الدارمي عن عمرو بن يحيى قال : ((سَمِعْتُ أَبِي يُحَدِّثُ عَنْ أَبِيهِ قَالَ : كُنَّا نَجْلِسُ عَلَى بَابِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ ﷺ قَبْلَ صَلَاةِ الْعَدَاةِ)) ؛ قبل صلاة الغداة : يعني قبل صلاة الفجر ، يجلسون عند باب عبد الله بن مسعود ؛ العالم الفقيه الإمام من علماء الصحابة وفقهاءهم ، فكانوا يجلسون عند بابه أي ينتظرون خروجه إلى المسجد ، والقصد من هذا الجلوس : الاستفادة من الوقت الذي يكون بين المسجد والبيت في سؤاله والتفقه عليه وأخذ العلم عنه ، وهذا يدل على أمرين في حق هؤلاء :

❖ الأمر الأول : الحرص الشديد على العلم وتحصيله والمكابدة والصبر على ذلك ، وهذا واضح جداً ؛ يأتون قبل صلاة الفجر ويجلسون عند بابه ينتظرون أن يخرج لصلاة الفجر ليمشوا معه إذا خرج فيستفيدوا علماً ، أو يستفسروا عن حكم ، أو يستفتوا في أمر ، أو نحو ذلك . هذا أمر واضح في جلوس هؤلاء الصحابة وهؤلاء الأفاضل عند بيته .

❖ الأمر الثاني الاستفادة من جلوسهم : أدبهم في العلم وتحصيله ، وأدبهم في صحبة العلماء ، وهذا أمر واضح ، يعني ينتظر خروجه ، ويكر إلى مجلس العلم أو إلى مكان العالم ، ويصحب العالم بأدب ، ويسأله بأدب ، ويستفيد من علمه ؛ فهذه صفات كانوا عليها . كلما عظم أدب الإنسان في طلب العلم وتحصيله وأدبه مع أهله وحملته عظم نصيبه وحظه منه ، وإذا فقد طالب العلم الأدب مع كتاب العلم ومع حملة العلم ضعُف حظه من العلم ونصيبه منه ، فهذا فيه جدّ الصحابة في الطلب وأدبهم فيه ، فيهم من هو من الصحابة وفيهم كذلك من هو من التابعين .

قال : ((كُنَّا نَجْلِسُ عَلَى بَابِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ ﷺ قَبْلَ صَلَاةِ الْعَدَاةِ ، فَإِذَا خَرَجَ مَشِينَا مَعَهُ إِلَى الْمَسْجِدِ)) ؛ وهذا يشير إلى أن هذه عادة لهم متكررة للاستفادة من ابن مسعود ﷺ ، ومن كان عرض له استفتاء أو أمر معين أيضاً يتحرى هذا الوقت مثل ما حصل من أبي موسى الأشعري ﷺ .

قال : ((فَجَاءَنَا أَبُو مُوسَى الْأَشْعَرِيُّ ﷺ فَقَالَ : أَخْرَجَ إِلَيْكُم أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ بَعْدُ؟ قُلْنَا : لَا)) وأبو موسى الأشعري في ذاك الوقت كان أمير الكوفة ، ورأى أمراً منكراً فجاء إلى أحد كبار فقهاء الصحابة وعلماء الصحابة ليعرض عليه هذا الأمر المنكر الذي رآه ينتظر رأيه ، فجاء إلى هؤلاء وهم جلوس عند بيت ابن مسعود ﷺ وعن الصحابة أجمين ينتظرون خروجه فقال: أخرج إليكم بعد ؟ قالوا لا ؛ فجلس معهم ينتظر خروج ابن مسعود ﷺ .

((فَجَلَسَ مَعَنَا حَتَّى خَرَجَ ، فَلَمَّا خَرَجَ قُمْنَا إِلَيْهِ جَمِيعاً ، فَقَالَ لَهُ أَبُو مُوسَى : يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ إِنِّي رَأَيْتُ أَنْفًا فِي الْمَسْجِدِ أَمراً أَنْكَرْتُهُ ، وَلَمْ أَرَ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ إِلَّا خَيْراً)) ؛ انظر عرض أبي موسى الأشعري رضي الله عنه للأمر الذي رآه وأدبه أيضاً مع ابن مسعود ، ((يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ إِنِّي رَأَيْتُ فِي الْمَسْجِدِ أَنْفًا أَمراً أَنْكَرْتُهُ)) لاحظ تعبيره بـ«أنكرته» ولم يقل إني رأيت أمراً منكراً ؛ جزماً منه بأن الأمر منكر ، وإنما قال «أنكرته» يعني رأيت أو ظهر لي أو تبين لي أنه منكر .

((وَلَمْ أَرَ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ إِلَّا خَيْراً)) ؛ يعني الشيء الذي أنكرته هو في ظاهره خير؛ ذكر الله تعالى وتسبيح وتحميد وتهليل .

((قَالَ : فَمَا هُوَ؟)) يعني ما هو هذا الأمر الذي رأيته وأنكرته ؟

((فَقَالَ : إِنْ عِشْتَ فَسَتَرَاهُ)) ؛ يعني إن كتب الله عز وجل لك حياة فسترى هذا الأمر ، ولعله هنا يرد قول الناظم :

اللَّهُ أَخَّرَ مَوْتِي فَتَأَخَّرْتُ حَتَّى رَأَيْتُ مِنَ الزَّمَانِ عَجَائِبًا

فيقول : أنت إن كتب الله لك حياة فسترى هذا الأمر الذي أنكرته وستقف عليه في المسجد كما وقفت عليه . وقول أبو موسى هنا «سَتَرَاهُ» يدل على أن هذا الأمر أصبح متكرراً في المسجد بحيث أنه جزم بأنه سيراه لأنه أمر متكرر .

((قَالَ : رَأَيْتُ فِي الْمَسْجِدِ قَوْماً حَلَقاً جُلُوساً يَنْتَظِرُونَ الصَّلَاةَ ، فِي كُلِّ حَلَقَةٍ رَجُلٌ ، وَفِي أَيْدِيهِمْ حَصَى فَيَقُولُ : كَبِّرُوا مِائَةً فَيُكَبِّرُونَ مِائَةً ، فَيَقُولُ : هَلِّلُوا مِائَةً فَيَهْلِلُونَ مِائَةً ، فَيَقُولُ : سَبِّحُوا مِائَةً فَيُسَبِّحُونَ مِائَةً)) ؛ انظر جوانب هنا جعلت أبا موسى الأشعري يقول «وَلَمْ أَرَ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ إِلَّا خَيْراً» :

■ الجلوس في المسجد ؛ هذا أمر .

■ انتظار الصلاة ؛ هذا أمر آخر .

■ ذكر الله تعالى بألفاظ شرعها ، بل يحبها تعالى ، بل هي أحب الكلام إليه كما قال عليه الصلاة والسلام : ((أَحَبُّ الْكَلَامِ إِلَى اللَّهِ أَرْبَعٌ : سُبْحَانَ اللَّهِ ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ)) ، وقال عليه الصلاة والسلام : ((لَأَنْ أَقُولَ سُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاللَّهُ أَكْبَرُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ)) ، وفي هؤلاء الكلمات ورد أحاديث كثيرة تدل على عظم فضلها ورفعة مكانتها وعظم ثوابها عند الله .

فهم في المسجد ، وفي انتظار الصلاة ، وفي ذكر الله تعالى بألفاظ يحبها الله تعالى بل هي أحب الكلام إليه تعالى ، ولكن طريقة الذكر والصفة التي اجتمعوا عليها بحيث يقوم عليهم رجل ، وبحيث أيضاً يأتون بهذه الأذكار جماعة بصوت واحد ، وأيضاً استخدام الحصى للعد كلما فرغوا من مئة عدوا مئة أخرى بالحصى ؛ هذه أمور لم تكن موجودة بين الصحابة . وأخذ يمارسها هؤلاء في المسجد والصحابة متوافرون ، ابن مسعود كانت وفاته في سنة اثنين وثلاثين ، كان أكثر أعيان الصحابة موجودون في ذلك الوقت ، وعدد من المبشرين بالجنة كانوا موجودين في

ذلك الوقت ، وعدد من فقهاء الصحابة كانوا موجودين ؛ ومع ذلك انشغل هؤلاء بهذا الأمر الذي لا أصل له بهذه الصفة في دين الله ﷻ ، والذي دفعهم إليه هو حب الخير والرغبة في الخير ولكن بدون رجوع إلى أهل العلم وحملته ، وبدون فقه وبصيرة في دين الله تبارك وتعالى .

أيضا لاحظ هنا : أنها حلق وليست حلقة واحدة ؛ وهذا يدل أن البدعة تجرّ إلى البدعة ، وفتح الباب على الناس في البدعة يجعل الجهال ومن لا علم لهم بدين الله ﷻ يدخلون في البدعة وينغمسون فيها ، وهذا أمر معروف من حيث الواقع ؛ أن الناس كثير منهم يوجد عنده رغبة في الخير وأي أمر يُذكر له أنه خير ينشره ويعمل به دون تمحيص ، ولعلكم تلاحظون الآن يكثر في زماننا إما أوراق مكتوبة أو عبر رسائل الجوال تُذكر أعمال ويُذكر ترغيب فيها والعمل لا أصل له والترغيب لا أصل له ولا دليل عليه، وتجد الناس ينشرونها ، وإذا قيل لأحد هذا لا أصل له قال : " والله ما أردنا إلا الخير ، ودّنا تنتشر الأعمال الصالحة ، ودّنا ينتشر الخير بين الناس " ، فكثير من الناس رغبته الشديدة في الخير وفي الوقت نفسه قلة بصيرته وعلمه بالدين تجعله إما يمارس البدعة ، أو يدعو إلى البدعة ، أو يكون من أنصار البدعة ؛ وينفتح عليه باب الإحداث والابتداع في دين الله ﷻ واتباع الأهواء . فهي ليست حلقة واحدة وإنما عدة حلق في المسجد ، لكنها يقيناً بدأت بحلقة واحدة ، وهذه الحلقة وعليهم رجل سبّحوا مئة ، يدخل الناس المسجد ويرون جماعة ويسبحون ويهللون ويكونوا ناس لا علم لهم يقولون لماذا لا نكون مثل هؤلاء أهل الجد والاجتهاد في الذكر والمواظبة على ذكر الله ليسو غافلين ، لماذا لا نفعل مثلهم ؟ فتبدأ حلقة ثانية ، والحلقة الثانية تنادي الحلقة الثالثة ، والثالثة تنادي الرابعة وهكذا ، فنشوء الفرق والبدع والجماعات هذه بداياتها ، حتى الآن الفرق المحدثّة تنشأ فرقة ثم يُعجب بها أفراد من الناس جهلة بدين الله فأيضاً يختطون لأنفسهم فرقة أخرى فتكثر الضلالات والأهواء في الناس ويذهب عنهم العلم والدراية بسنة النبي ﷺ .

قال ابن مسعود : ((قَالَ : فَمَاذَا قُلْتَ لَهُمْ ؟)) ؛ يعني لما رأيتهم على هذه الحال ماذا قلت لهم ؟ ((قَالَ : مَا قُلْتُ لَهُمْ شَيْئًا اُنْتَظَرِ رَأْيِكَ أَوْ اُنْتَظَرِ أَمْرِكَ)) يعني انتظار ما تأمر به أو ما توجّه إليه . وهذا أيضاً واجب الناس مع أهل العلم والفقهاء ؛ أبو موسى الأشعري عنده علم وعنده فقه ولكن ابن مسعود رضي الله عنه في الفقه ومكانته فيه معروفة ، ولهذا لم يكتفِ بإنكاره هو لذلك - وإنكاره لذلك كان عن فقه ولكنه دون مكانة ابن مسعود رضي الله عنه في الفقه - فانتظر حتى يلقي ابن مسعود رضي الله عنه ويعرض عليه الأمر . قال ((اُنْتَظَرِ رَأْيِكَ أَوْ اُنْتَظَرِ أَمْرِكَ)) : أي توجيهك في هذا الأمر .

((قَالَ : أَفَلَا أَمَرْتَهُمْ أَنْ يَعُدُّوا سَيِّئَاتِهِمْ وَضَمِنْتَ لَهُمْ أَنْ لَا يَضِيعَ مِنْ حَسَنَاتِهِمْ شَيْءٌ؟)) ؛ يعني أفلا قلت لهم عدّوا سيئاتكم ، لأن العمل الذي يقومون به عمل غير مشروع ؛ حتى وإن كانوا يسبحون ويهللون ويحمدون ، العمل الذي يقومون به غير مشروع في دين الله ، والله ﷻ لا يقبل العمل إلا إذا كان مشروعاً مأموراً به أمر استحباب أو أمر إيجاب ، أما التقرب إلى الله ﷻ بالعمل الغير مشروع هذا من موجبات رد العمل وعدم قبوله

كما قال عليه الصلاة والسلام : ((مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ زَدٌّ)) أي مردود على صاحبه غير مقبول منه ، ولهذا قال : ((أَفَلَا أَمَرْتَهُمْ أَنْ يَعُدُّوا سَيِّئَاتِهِمْ ، وَضَمَنْتَ لَهُمْ أَنْ لَا يَضِيعَ مِنْ حَسَنَاتِهِمْ شَيْءٌ)) .
((ثُمَّ مَضَى)) ؛ يعني بعد أن قال لأبي موسى هذا الكلام .

((ثُمَّ مَضَى وَمَضَيْنَا مَعَهُ حَتَّى أَتَى حَلْقَةً مِنْ تِلْكَ الْحَلِيقِ ، فَوَقَفَ عَلَيْهِمْ فَقَالَ : مَا هَذَا الَّذِي أَرَأَكُمْ تَصْنَعُونَ؟)) والاستفهام هنا استفهام إنكار ، فهو يستنكر هذا الأمر الذي هم عليه ، ما هذا الأمر الذي أنتم تصنعون ؟ قوله «مَا هَذَا الَّذِي أَرَأَكُمْ تَصْنَعُونَ؟» هذا استفهام إنكار ؛ هو لا يسألهم هنا عن هذا العمل هل أنتم تصنعون عملاً مشروع ؟ هل عندكم دليل عليه؟ هو لا يسألهم عن ذلك ، وإنما ينكر ما هذا الأمر الذي تصنعونه، وفهموا من كلامه أنه يسألهم عن صفة العمل ؛ ما صفته ؟ وصفته ظاهرة له ، سمع بها ورآهم عليها ، ففهموا أنه يسألهم عن صفة العمل أو طبيعة العمل الذي هم عليه فأخذوا يشرحون له عملهم ((قَالُوا : يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ حَصَى نَعُدُّ بِهِ التَّكْبِيرَ وَالتَّهْلِيلَ وَالتَّسْبِيحَ)).

((قَالَ : فَعُدُّوا سَيِّئَاتِكُمْ فَأَنَا ضَامِنٌ أَنْ لَا يَضِيعَ مِنْ حَسَنَاتِكُمْ شَيْءٌ)) ؛ عدّوا سيئاتكم لأن العمل هذا الذي تعملونه ليس من شرع الله ولا دليل عليه في كتاب الله وسنة النبي ﷺ ، ولم يكن يعملها الصحابة الذين هم قدوة للناس ، ومر معنا ثناء الله ﷻ على أتباع الصحابة بإحسان ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقَدَّمُونَ﴾ [التوبة: ١٠٠] ، فهذا الذي عليه هؤلاء أصحاب تلك الحلق ليس من الإتيان في شيء بل هو من الإحداث في دين الله ﷻ ؛ فلهذا قال لهم : ((عُدُّوا سَيِّئَاتِكُمْ)).

لاحظ هنا ملاحظة مهمة : القوم يذكرون الله ، وابن مسعود يقول لهم ((عدوا سيئاتكم)) !! أعظم من ذلك : يذكرون الله ﷻ بأفضل الذكر الذي هو سبحانه الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر وابن مسعود يقول ((عدوا سيئاتكم)) !! فإذا كان ابن مسعود قال هذا الكلام في حق من اجتمعوا في المسجد انتظاراً للصلاة مسبّحين مهللين حامدين مكبرين وقال في حقهم هذا الكلام ؛ فكيف بمن اجتمعوا على غير دين الله لا في الصفة ولا في الذكر ولا في الهيئة إلى غير ذلك !! مثل من يجتمعون في المسجد يُنشِدون الأناشيد بصوت واحد ، إذا كان أنكر ابن مسعود من يسبح ويهمل ويكبر جماعةً بهذه الصفة فكيف بمن يجتمعون للأناشيد أو خرافات أهل الفرق الباطلة وضلالاتهم أو أذكاهم المحدثّة ، فالأمر ولا شك أعظم وأفظع .

((وَيُحْكُمُ يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ مَا أَسْرَعَ هَلَكَتِكُمْ)) يعني ما أسرع سيّركم إلى طريق الهلكة ، ما أسرع ذهابكم إلى طريق الهلكة . و«ويح» : هذه كلمة يؤتى بها للتقريع والزجر ونهر الإنسان عن الأفعال القبيحة الذميمة المنكرة ، ((ويحكم يا أمة محمد ما أسرع هلكتكم)) يعني ما أسرع سيّركم إلى الهلكة .

((هَؤُلَاءِ صَحَابَةُ نَبِيِّكُمْ ﷺ مُتَوَافِرُونَ)) ؛ يعني موجودون .

وهذه الكلمة؛ قوله ((هؤلاء صحابة نبيكم متوافرون)) تشير إلى أن أصحاب تلك الحلق ليسو من الصحابة وإنما من المسلمين الذين هداهم الله ﷺ إلى الإسلام وعرفوه من طريق الصحابة ثم اجتهدوا في فعل أعمال في الإسلام يتقربون بها إلى الله لم يروا عليها الصحابة ، وطريق الإسلام إليهم جاء من طريق الصحابة ، فأخذوا يعملون أعمالاً ليست من هدي الصحابة ولا من طريقتهم ولا من سبيلهم ، ولهذا قال: ((صَحَابَةُ نَبِيِّكُمْ ﷺ مُتَوَافِرُونَ)) مشيراً بذلك إلى قاعدة عظيمة مهمة في الباب قررها الإمام مالك رحمه الله : «ما لم يكن ديناً زمن النبي ﷺ فلا يكون اليوم ديناً» ، بل قررها حذيفة كما تقدم قريباً عندما قال : «كل عبادة لم يتعبد بها أصحاب رسول الله ﷺ فلا تعبدوها» . فهذا مراد ابن مسعود رضي الله عنه بقوله : ((صَحَابَةُ نَبِيِّكُمْ ﷺ مُتَوَافِرُونَ)) منبهاً إلى هذه القاعدة : أن كل عمل يتقرب إلى الله به ليس عليه عمل الصحابة وليس معروفاً عند الصحابة فهو بدعة ، ولهذا جرت عادة أهل العلم في إنكار الأمور المحدثات بالتنبيه إلى أن هذه لم تكن موجودة عند الصحابة ﷺ ، فهل يكون هذا الأمر الذي يعمله هؤلاء خيراً حجه الله عن الصحابة وحرم الصحابة منه وادّخره هؤلاء !! قل هذه الكلمة لأصحاب الموالد وأصحاب الاحتفالات ؛ قل لهم : هذا العمل الذي تمارسونه الآن وتدّعون أنه إظهار لمحبة النبي ﷺ هل هو خير ادّخره الله لكم وحجه عن أبي بكر ، وحجه عن عمر ، وحجه عن عثمان ، وحجه عن علي ، حجه عن هذا الصدر المبارك! حرموا منه وفترتم به !! حُجِبَ عنهم وادّخر لكم ؟ أم يمكن ذلك ؟

من كان عنده أدنى تأمل وأدنى فهم في هذا الأمر لأبصر ما عليه هؤلاء من ضلالة ومخالفة للهدي القويم والصرط المستقيم ، لأننا نجزم يقيناً أن هذا الأمر لو كان خيراً لسبقونا إليه ، لأنهم السّابقون ، ولاحظ هنا هذه اللفظة الكريمة في الآية ؛ الله ﷻ وصفهم بالسبق وجعل فرضنا في هذا الباب إتباعه ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾ المَهاجرين وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ ﴿؛ فرضنا نحن اتباعهم بإحسان ، ولهذا حظنا من الخير بحسب إتباعنا لهم ، أما السابق إلى الخير من جميع أبوابه فهو حظهم ، فكل خير لم يوجد عندهم أو بينهم أو فيهم فليس خيراً وليس من دين الله ، لأنهم السّابقون لكل خير ، بل كل خير وصل إلى الأمة بعدهم وصل إليها من طريقهم هم نقلته ، نقلة الخير إلى الأمة، سمعوه من النبي عليه الصلاة والسلام وتحملوه بأمانةٍ وصدق وبلغوه الأمة .

فهذا أصل في هذا الباب من فقهه سليم من البدع ، من روض نفسه عليه سليم من البدع ، «أي عبادة لم يتعبد بها أصحاب رسول الله ﷺ فلا تعبدوها» ، وهذا الأثر يفتح لك أيضاً باباً عظيماً في فهم هذا الأصل؛ وهو أن تقول: إذا كان هذا الأمر الذي حدث حدث في زمن الصحابة ، وأعيان الصحابة موجودون ومتوافرون ، ومع ذلك وُجد والصحابة بين أيديهم ؛ فلأن توجد محدثات أكثر بعد زمانهم من باب أخرى وأولى .

وهذا أيضا يفتح لك باباً آخر في الفهم وهو : أن لا تستصغر بدعةً ، فالبدعة أياً كانت عظيمة وخطيرة وتجرب صاحبها إلى مخاطر عظام جداً ، فلا تستصغر بدعةً ولا تقالها ؛ بل إياك وإياها؛ احذرهما .

قال: ((وَهَذِهِ ثِيَابُهُ -أي النبي عليه الصلاة والسلام- لَمْ تَبَلْ ، وَأَنِيتُهُ لَمْ تُكْسَرْ)) ؛ مشيراً إلى أن موته ﷺ مبلغاً الدين كاملاً غير منقوص كان عهده قريب ، كم بينهم وبين وفاة النبي ﷺ ؟ ربما لا يزيد على عشرين سنة ، إذا قلنا ابن مسعود توفي في السنة الثانية والثلاثين فيكون بينهم وبين وفاة النبي ﷺ في حدود عشرين سنة، يعني وقت قريب . ((ثِيَابُهُ لَمْ تَبَلْ ، وَأَنِيتُهُ لَمْ تُكْسَرْ)) ثم تذهبون تفتتحون هذا الباب في الإحداث في الدين والصحابة لا يزالون بينكم !! فإذا كان هذا وُجد في ذاك الوقت فما بالكم بالأوقات المتأخرة !! .

ثم قال: ((وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّكُمْ لَعَلَى مِلَّةٍ هِيَ أَهْدَى مِنْ مِلَّةِ مُحَمَّدٍ ، أَوْ مُفْتَتِحُوا بَابَ ضَلَالَةٍ)) ، وجاء في بعض الروايات ((لقد جئتم بدعة ظلاماً أو فُتِّمْتُمْ أصحاب محمد علماً)) لأن هذا العلم الذي عندكم والعمل الذي تمارسونه لا وجود له بين الصحابة ، وهنا يقول: ((وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّكُمْ لَعَلَى مِلَّةٍ هِيَ أَهْدَى مِنْ مِلَّةِ مُحَمَّدٍ ، أَوْ مُفْتَتِحُوا بَابَ ضَلَالَةٍ)) كأنه يقول لهم : أمامكم خياران ليس لهم ثالث؛ الخيار الأول: أنكم على ملة خير من ملة محمد ﷺ ، وانظر هذا الكلام القوي الذي أطلقه ابن مسعود في حقهم ، مع أنهم كانوا يمارسون نوعاً من الذكر المشروع بصفة غير مشروعة فقال: ((أنتم على ملة هي خير من ملة محمد ﷺ ، أَوْ مُفْتَتِحُوا بَابَ ضَلَالَةٍ)) وانظر أيضاً متأماً قوله «أَوْ مُفْتَتِحُوا بَابَ ضَلَالَةٍ» ففي هذا تنبيه إلى أن الدخول في البدع الصغار يجر إلى بدع كبار . وقوله ((مُفْتَتِحُوا بَابَ ضَلَالَةٍ)) تشمل أمرين :

١- تشمل مفتتحوا باب ضلالة على أنفسكم ؛ بحيث تتوسعون في البدع وتكبر فيكم البدع ، وهذا سيأتي شاهده من الحديث .

٢- وأيضاً تحتل معنى آخر : مفتتحوا باب ضلالة على الناس ؛ فتستمر هذه البدعة ونظائرها وأمثالها وينطبق عليكم الحديث: ((مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً كَانَ عَلَيْهِ وِزْرٌ وَمِزْرُهَا وَمِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ)) ، وليس من شرط الإنسان أن يسن السنة بقوله بل بفعله ، مثل ما حصل من هؤلاء في سن هذه الطريقة في الذكر .

اسمع الآن إلى الاعتذار ((قَالُوا : وَاللَّهِ يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ مَا أَرَدْنَا إِلَّا الْخَيْرَ)) يعني لم نُرد بهذا العمل إلا الخير ، ما أردنا شراً ، ما قصدنا إحداثاً في الدين ، ما قصدنا افتتاح باب ضلالة ، ما أردنا إلا الخير . وهذا لسان حال كثيرين ممن يعبدون الله تبارك وتعالى بغير بصيرة وبغير هدى من دين الله ، إذا سُئِلُوا عن الأمر الذي يعملونه أحياناً يقولون : " ما أردنا إلا الخير " ، وأحياناً يسمّون أمراً يدل على أنهم ما أرادوا إلا الخير ، يعني مثلاً من يقيمون الموالد يقيمونها بزعمهم لإظهار محبة النبي ﷺ ، إظهار محبته خير أرادوه لكن المسلك الذي سلكوه غير مشروع ولا دليل عليه في كتاب الله ولا في سنة نبيه ﷺ ولا في عمل الصحابة الأخيار رضي الله عنهم وأرضاهم ،

ولو كان فيه خير لسبقنا إليه أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وأعيان الصحابة الذين هم أشد الناس حباً للرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه .

فقال ابن مسعود رضي الله عنه: ((وَكَمْ مِنْ مُرِيدٍ لِلْخَيْرِ لَنْ يُصِيبَهُ)) ؛ يعني كم من إنسان أراد الخير ولكنه لا يصيب الخير، إذاً إذا كان ليس كل من أراد الخير أصابه من الذي يصيب الخير ؟ من وفق للسنة ولزومها والتمسك بها والعض عليها بالنواجذ والحذر من المحدثات ؛ من كان بهذه الصفة أصاب الخير ، أما الذي يفتتح لنفسه ولغيره أبواب العمل والتقرب إلى الله تبارك وتعالى بغير ما شرع الله تعالى فهذا أمرٌ في غاية الخطورة .

ثم ساق ابن مسعود رضي الله عنه لهم حديث النبي صلى الله عليه وسلم في شأن الخوارج قال: ((وَكَمْ مِنْ مُرِيدٍ لِلْخَيْرِ لَنْ يُصِيبَهُ، إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم حَدَّثَ أَنَّ قَوْمًا يَقْرَأُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ)) ؛ لاحظ إيراد حديث الخوارج هنا وهو أن من يفتح باب البدعة على الأمة ليس من لازم افتتاحه باب البدعة أن يأتي بأمرٍ لا أصل له مطلقاً من الدين ؛ بل يأتي بأعمال مشروعة ثم يضيف لها إضافات فتخرج عن حيز السنة ، فهنا يأتي بالذكر ولكن يضيف له بعض الصفات بحيث يخرج به عن السنة وعن الدين عن هدي النبي الكريم عليه الصلاة والسلام . فأورد هذا الحديث لينبه على هذا الأمر ، يعني أن البدعة تكون أحياناً في الإتيان بالأمر المشروع ثم يضاف إليه إضافة غير مشروعة ، فهنا هؤلاء في بداية أمرهم أتوا بالذكر وأضافوا إليه ما ليس منه ، ثم انتقلوا إلى أمر آخر وهو أنهم جاءوا بمسألة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أرادوا إنكار المنكر وأضافوا إليه حمل السيف على الأمة ، ثم إنكار المنكر الذي هو بزعمهم منكر ، وهو في حقيقة الأمر ليس منكراً وإنما هو منكر بزعمهم ؛ لأنهم جهلة في دين الله .

فلاحظ كيف يرتقي بهم الضلال!! ينفصلون عن أهل العلم وعن الرجوع إلى العلماء ويستقلون بآراءهم مع جهلهم بدين الله تبارك وتعالى ، ثم يحصل منهم رفع السيف زعماً منهم أنهم يريدون إنكار المنكر ، يرفعون السيف على الأمراء وعلى العلماء وعلى أفراد المجتمع لأنهم على ضلال بزعم هؤلاء .

قال: ((وَأَيْمُ اللَّهِ مَا أَدْرِي لَعَلَّ أَكْثَرَهُمْ مِنْكُمْ)) ؛ يعني كأنه توسم فيهم ورأى من حالهم أو علم من حال من فتح على نفسه باب الضلالة أنه تجرّه إلى ضلالات أكبر فقال صلى الله عليه وسلم: ((لَعَلَّ أَكْثَرَهُمْ مِنْكُمْ)). ((ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ)) ؛ يعني ذهب وتركهم .

((فَقَالَ عَمْرُو بْنُ سَلَمَةَ رضي الله عنه: رَأَيْنَا عَامَّةً أُولَئِكَ الْحَلْقِ يُطَاعُونَا يَوْمَ النَّهْرَوَانِ مَعَ الْخَوَارِجِ)) ؛ رأينا عامة هؤلاء: يعني جلّ هؤلاء . ويكون معنى هذا أن بعضهم اهتدى ورجع وترك، وعامتهم يقول عمرو رأيناهم يطاعوننا يوم النهروان. والنهروان: هي المعركة التي دارت بين علي رضي الله عنه وبين الخوارج وقتل رضي الله عنه منهم خلقاً عظيماً بعد أن اجتهد في مناصحتهم وأرسل لهم ابن عباس وناظرهم ورجع منهم من رجع ثم امتنع منهم من امتنع وقتلهم رضي الله عنه وأرضاه .

فيقول عمرو : ((رَأَيْنَا عَامَّةً أُولَئِكَ الْخَلْقِ يُطَاعُونَنَا يَوْمَ النَّهْرَوَانِ مَعَ الْخَوَارِجِ)) ؛ وهذا كما قدّمت فيه فائدة عظيمة في خطورة البدع والتحذير منها من جهة أن الإنسان لا ينبغي أن يتقالّ بدعة أيّاً كانت ، بل يحذر من البدع ، فالبدع تجر إلى بدع ، والبدع الصغار تجر إلى بدع كبار والأمر جد خطير . والواجب على الإنسان أن يحفظ إسلامه ؛ ومن حفظ الإسلام : الحذر من البدع ، ومن أبواب نيل فضائل الإسلام : البعد عن البدع ، لأن البدعة تضر بالإنسان وتضر بعمله وتسبب رد العمل وعدم قبوله وعدم نيل فضائل الإسلام .

فتوّج المصنف رحمه الله كتابه «فضل الإسلام» بالتحذير من البدع مع أنه سبق أن عقد أبواباً متعددة في التحذير منها ، لكن هذا التكرار وهذه المعاودة للبيان كله تنبيه على خطورة البدع وشدة ضررها على أصحابها في البعد عن الإسلام وهدية القويم وسننه المستقيم الذي كان عليه رسول الله ﷺ وصحابته الكرام رضي الله عنهم وأرضاهم .

ثم ختم رحمه الله كتابه بقوله ((والله المستعان وعليه التكلان)) ؛ أي أن العون من الله والتوكل على الله ، فكأنه ينبهك هنا قائلاً : يا من عرفت الحق الزم الحق واستعن على لزومه بالله ﷻ وتوكل عليه . منبهاً بذلك إلى قول النبي عليه الصلاة والسلام : ((اَحْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِزْ بِاللَّهِ)) ، ما ينفعك بسطه لك في هذا الكتيب «فضل الإسلام» وعرفته ؛ فاطلب من الله ﷻ العون ، وتوكل على الله ﷻ بحفظ هذا الأمر والمحافظة عليه والثبات عليه ، ((والله المستعان وعليه التكلان)) لأن الأمر بيده تبارك وتعالى .

ثم ختم بالصلاة والسلام على رسول الله ﷺ قائلاً : ((وصلّى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين)) . وبهذا انتهى هذا الكتاب .

ونسأل الله الكريم رب العرش العظيم أن ينفعنا بما علّمنا ، وأن يجعل ما تعلمناه حجة لنا لا علينا ، وأن يغفر لمؤلفه شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله ، وأن يجزيه خير الجزاء على هذا الكتاب العظيم وعلى كتبه الأخرى العظيمة النافعة التي ترتب عليها خيرٌ عظيم ونفعٌ عميم وفوائد جليلة لأمة الإسلام ؛ فجزاه الله عن أمة الإسلام خير الجزاء وأوفره ، إنه تبارك وتعالى سميع الدعاء وهو أهل الرجاء وهو حسبنا ونعم الوكيل .

والله أعلم وصلى الله وسلم على نبينا محمد .